مَوضُوعَات أوليّة في الثّقافة

سليم رضوان

ان اشكالية الاخفاق ، بمختلف ابعادها ، النخبوية والجماهيرية ، أصبحت محور نقاشات المثقفين ، كما ان الحدس الشعبي يعبر عنها بأشكال مختلفة ، مباشرة او غير مباشرة . وهي تتخذ عادة شكل أزمة عامة ، فكرية وتنظيمية وسياسية ، ولذلك فحين طرح العروي برنامجه الفكر الليبرالي كبديل نظري ، انطلاقا من نفس الاشكالية ، كان يعتقد أن هذا الاخفاق ليس تنظيميا بقدر ما هو اخفاق نظري ، اى تجاوز تاريخي لمرحلة تاريخية . ولذلك فالانتقادات التي وجهت للعروي متهمة اياه بالجدلي التجريدي او النظري النخبوي داعية الى الواقع الحي ، تجاهلت موضوعات أساسية :

1 ـ الاعتراف بالاخفاق النظري .

2 ـ اعطاء البديل ، اى بديل الليبرالية الفكرية .

3 ـ تجاوز ازمة النظرية التي تعيشها النخبة بين التراث والمعاصرة، بين الماركسية كمنهج وأداة للعمل وبين الماركسية كتصور عام للطبيعة والمجتمع والفكر . بين الاقتصادية التقنوقراطية وبين الايديولوجيا.

يجب اذن تحديد الاخفاق النظري ، اذ بدون تحديد النظرية فان الممارسة لن تكون الا سلسلة من الاخطاء ، من الاخفاقات تؤدي في نهاية المطاف الى الانتهازية الفكرية . حقا ، ان الممارسة هي الفاصل بين الادعاء والحقيقة ، ولكن ، هل تكفي الممارسة وحدها لفهم الواقع ، عند ذاك لن تكون ممارسة ثورية بل تجريبية قاتلة .

يجب اذن تحديد ابعاد هذا الاخفاق ومدلولاته ، ويتجلى ذلك في عدة مواقف: سياسية، فكرية، تنظيمية. فاليمين هو الذي يحدد تكتيك النخبة فهو الذي يستفيد منها في مآزقه ، مازال فكره مقدسا بل ما زالت النخبة تحمي قدسية وشرعية هذا الفكر. وبعبارة واحدة، ما زالت الثقافة الثورية شعارا يتحول على صعيد الممارسة الى ربط الحاضر بالماضي ، الى مزج التراث بالمعاصرة ، الى تلقيح الاصالة بالمنهج المادي الجدلي . ولتحديد

هذا الاخفاق يجب معرفة اسبابه : هل هي راجعة الى عجزنا عن معرفة وفهم مجتمعنا نظرا لاستعمالنا منهجا غريبا عن هذا المجتمع ، ومن ثمة قاصرا عن ادراك خصوصياته ، ام نظرا لارتباطنا بمفاهيم تراثية لم تعد قادرة على استيعاب المجتمع الجديد ونتيجة تطور علاقاته وتغير بنيانه.ام ان السبب هو جهلنا بالمرحلة التاريخية المحددة التي يجتازها هذا المجتمع ومن ثمة ، تجاوز قوانين التاريخ ، أي ان تعاملنا مع التاريخ لا تاريخي ولا جدلي. بمعنى انه تعامل ذاتي ، اى لا ينطلق من التاريخ ، من محدداته الموضوعية ، بل من افكارنا ،ختياراتنا المسبقة التي تحدد التاريخ عوض ان يحددها .

I ـ لماذا هذه الاشكالية : ان النقاشات الدائرة في صفوف مثقفينا ـ بالرغم من ادعائها بأنها تنطلق من الواقع الحي، اى من الحياة، نقاشات مثالية، تتجاوز الواقع وتحكمه برؤية ضيقة مدعية تعبيرها عن روءى كل الطبقات . انها تتجاوز ذاتها على صعيد الفكر محاولة تحقيق ذاتها على صعيد الفكر محاولة تحقيق ذاتها على صعيد الممارسة ومن ثمة مأساتها. ان ما يخيفها حقا هو القول بأن تفكيرها لا يعدو ان يكون تفكير طبقة معينة ، هامشية ، غير مؤهلة تاريخيا للقيام بدور تاريخي. ثم ، إن مأساة مثقفينا تنبع من الوصاية ، الوصاية اتجاه الجماهير اى المرشد الذي في حاجة الى من يرشده. وهي وصاية نابعة من الممارسات السائدة في المجتمع وعلى كل الاصعدة، وصاية التراث، وصاية السابقين في ميدان السياسة، وصاية النصوص ، وبذلك يصبح من السهل وصف اى حركة ثقافية جديدة بكونها مستلبة اتجاه الغرب ، بل ووضعها في نفس الميزان مع الحركات الثقافية الرجعية . وأخيرا ، فان علاقة مثقفينا بالجماهير ، علاقة واهية، فبالاضافة الى انهم لم يعلموها شيئا فهم لم يتعلموا منها ايضا . وفي الوقت الذي تحاول فيه الجماهير ان تكسر الاغلال بوسائلها الخاصة ترى مثقفينا يبررون الوضع ، ويطلبون للتراث ، وهم عوض ان يقوموا بهدم الجسر الذي يمر منه الفكر الاقطاعي الى صفوف شعبنا نراهم يزينون هذا الجسر بالورود .

انطلاقا من هذه الخصائص يمكننا تحديد البعد النظري للثقافة ، لا الثقافة بمفهومها النخبوي او الوصي ، ولكن الثقافة ، كسلاح فكري ، اذ ما دور الثقافة المهانة ، المبررة او الغارقة في هموم الذات بدعوى الغربة، أي ما دور الثقافة كترف فكري . ولكن الثقافة ليست سلاحا فقط ، بل سلاحا نقديا ، والافكار الصائبة او الخاطئة تجد حقيقتها في الواقع الحي، في مدى مطابقتها او عدم مطابقتها . والواقع الحي ، عادة ما يقصد به التجريبية ، عند ذاك يجب ان نرفض هذا الواقع باعتباره ثابتا وأن نتحدث عن الواقع الجامد. ان الثقافة سلاح نقدي حي لواقع متغير حي. وهي ليست

سلاحا مجردا بل سلاحا طبقيا ، واشكالية الثقافة في بلدنا انها تجهل منطلقاتها المادية اى الطبقيه ، وهى ترفض ان تسمى بثقافة بورجوازيه صغيرة : الذاتية ، اليأس ، الغربة ، الوصايه ، تقديس الجماهير في العلنية واحتقارها فى السر ، واخيرا السقوط في الانتهازية الفكرية . ان ثقافتنا متخلفة بالنسبة للنضال الجماهيرى ، انها تقف متوددة ، بعيون حالمة ، امام القمع الفكرى المسلط على فئات الشعب ، ولن يمكنها ان تتحول الى ثقافة ثورية بطريقة مجردة . بل انطلاقا من موقع طبقى جديد ، من موقع اكثر الطبقات ثورية فى المجتمع ، من موقع بروليتارى. وبذلك ستضع نفسها فى اكثر المناطق غليانا ، اذ سيكون من مهامها مواجهة أشرس أعدائها : الفكر الرأسمالى الاستعمارى والفكر التراثى الاقطاعى . وبالرغم مما يبدو من تناقض هذين الفكرين فانهما يعبران جسرا واحدا ويبرران وضعية واحدة ويستفيدان من نفس الوضعية ، وتلك مهمة الايديولوجيا . وان الثقافة لا يمكنها اداء هذه المهمة الا اذا تخلى مثقفونا عن عدد من الرواسب القديمة ، والافكار المسبقة ، الا اذا انطلقوا من اجل الحرية الحقيقية ، الا اذا انطلقوا من مفاهيم واضحة عوض الضبابية القاتمة وأخيرا الا اذا استطاعوا ان يقيموا العلاقة الجدلية بين النضال الطبقى والقومى والاممى . وما دامت ثقافتنا عاجزة عن ادراك هذه العلاقات فانها ستسقط لا محالة ضحية تاريخية تستحق الازدراء بدل الرثاء. ومن الغريب حقا ان تفهم الرجعية قوانين التاريخ افضل من اليسار العربى ، ولذلك فهى لا تنسى ابان مواجهتها عدوا قوميا ، استغلال المناسبة لتصفية عدوها الطبقى، واستغلال حماس الجماهير لتركيز الامبريالية ، ان الثقافة اليسارية فلم تدرك بعد جدلية هذا النضال ، ولذلك سقطت فى سلسلة من التكتيكات تحولت نتيجة تكرارها الى استراتيجية دائمة . ونتيجة لهذا الفهم الخاطىء تكون نتائج التكتيك سيئة وسلبية ، وعادة ما تكون هذه الخطوات غير متطابقة والمرحلة التاريخية . ولهذا فالبعد التاريخى فى ثقافتنا امر ضرورى والا فان عددا من الاشكاليات لن يجد حله النهائى.

2 ـ هل هناك تعارض بين الفكر الغربى والفكر التراثى: ان النظرة المجردة وحدها تؤكد ذلك ، اما الواقع الحى فيرفض الاحكام المطلقة .

I ـ عدم تحديد المصطلحات : الفكر الغربى عادة ما يقصد به الاستعمار ، ولذلك فعادة ما ننعته كما فعل الاقدمون بالفكر الدخيل ، وهكذا ايضا ننظر للغرب من زاوية واحدة : الفكر الاستعمارى . ونعتبر هذا مقياسا حقيقيا للتمييز بين الافكار الاصيلة والافكار الدخيلة ، ان البعض يتناول هذه المسألة بسذاجة مطلقة ، ويجد حلها فى رفض كل الافكار «الدخيلة» والحفاظ وتقديس الاصالة . والبعض الآخر يبحث فى التراث لينتقى الافكار الصائبة وينبذ الافكار الخاطئة . ان كلا الموقفين

ينطلقان من مهام منوسة تفرضها الوضعية المعاشة ، هناك نفى تعسفى للتاريخ ضد التاريخ ، الماضى وحده ماضينا ، أما المستقبل فيجب ان يخضع لهذا الماضى، دور المستقبل اذن ان يكون امتدادا للماضى ، ومهمة الحاضر انجاز هذه المهمة ك ان الفهم الحقيقى للواقع يقتضى عدم تجاوز هذا الواقع فى التحليل ، عدم اهمال البعد التاريخى فى تحديد الاصالة والمعاصرة ، اذ ان عددا كبيرا من الافكار ، بالرغم مما يبدو من تناقضها كمجردات تجد كامل انسجامها على صعيد التطبيق. ولذلك فمرحلة الامبريالية خير دليل على الانسجام التام بين الفكر التقليدى والفكر الاستعمارى ، بل ان الواقع يؤكد على ان استمرارية الفكر التقليدى رهين بالدعم الغربى الاستعمارى ، ولذلك ففى كثير من المناطق لاحظنا الرجعية تمد يدها للغرب الاستعمارى لحمايتها من العواصف الشرقية. وهى اذ تحمل على الغرب حملة عشواء فهى اذ تقصد اساسا الغرب الوثرى ، اى البروليتارى. وهى فى الوقت الذى تنعته بالدخيل وتجند طاقاتها لمواجهته كفكر ثورى تطور امكانياتها لاستغلال البروليتاريا . انها فى حاجة اليها كطبقة، ولكن بتفكير غير بروليتارى ، وهى بذلك تريد ان تحرم البروليتاريا من حقها الامى فى الوقت الذى تطور فيه «اميتها» الخاصة ، اى تجذير الامبريالية فى الوطن العربى. اننا عندما نبحث عن اليسار فى الفكر التراثى ، فاننا عادة ما ننتقى المظاهر النضالية لعصر من العصور ، ولكن خطأنا ينبع من كوننا نحاول تطبيق تكتيك وخطط ذلك اليسار التراثى على الحاضر ، على واقع رأس المال الاحتكارى ، على الواقع البروليتارى . ان هذا التطبيق التعسفى ينفى البعد التاريخى ويؤدى فى النهاية الى استمرار تزايد نفوذ التراث اليمينى . فاذا كانت اشتراكية أباذر الغفارى . وهى الحالة التى يعاد ترديدها بدون كلل ـ صالحة فهى ليست مطلقة، ولا مبرر لوجودها فى عصر الامبريالية ، وتكون الاشتراكية النابعة من مواجهة رأس المال الاحتكارى أقدر على الانتصار لانها تفهم اكثر من غيرها مواقع وتكتيك وخطط وأفكار عدوها . انطلاقا من ذلك هل يمكن القول بأن الماركسية غريبة عن المجتمع العربى ؟ كان من الممكن ان نتحدث عن نمط خاص من الانتاج لو لم نحيا مرحلة استعمارية رأسمالية ولو لم نكن حلقة رئيسية من حلقات نفوذ الامبريالية والرجعية العربية تفهم هذا جيدا ، فقوتها رهينة بقوة اسيادها ، ولذلك فهى مستعدة دوما للسعى لانقاذها من ازماتها والتضحة بمصالح الجماهير وتطلعاتها وخيراتها من اجل رفاهية وسعادة السيد الكبير . وفى الممارسة تبدو الثورة الفلسطينية خير مرشد للعمل وللرؤية الواضحة ايضا ، للحلفاء وللاعداء، وبدون شك فان التاريخ سيزيل الكثير من الاوهام وسيجلو حقيقة الصراع الطبقى والقومى والامى .

ان الحكم العام بالايجاب او السلب اى الحكم المطلق كثيرا ما يخفق لانه يتجاهل الصراع ، يتجاوز التاريخ وينفى الجدلية .

2 ــ تحديد الهوية : ان الجواب عن «من نحن ؟» لا يتحدد دوما «اتجاه الآخر» لان هذا الاخر لا يشكل الا مرحله تاريخية معينة . اذ تظل خصائص الانا مجهولة او متجاهلة . باضافة الى ان تحديدنا للاخر ينطلق من رؤيه معينة ومن زاوية واحدة : قومية غير طبقية ، ويكون الآخر بهذا المعنى ايضا ذا بعد واحد . ولذلك فان تحديد هويتنا كثيرا ما فهم منه العودة الى التراث ، الى الاصالة ، الى الخصوصية ، الى الماضى ، ولكن اى ماض هذا ؟ المكتوب ام الماضى المرصوص فى ذاكرة الشعب ؟ اذ ان التاريخ المكتوب ليس الا تاريخ الحاكمين وهم يريدون فرضه كتاريخ واحد ووحيد ومن ثمة ، يتحول تحديد هويتنا الى تحديد هويتها ، لذلك بان اغفال الموقع الطبقى فى تحديد الانا يؤدى الى موقف لا تاريخى. من نحن ؟ تقتضى دوما «من الآخر؟» وأداة الجواب ليست دوما قوميه بل لماذا لا تكون اممية ، وحين اقول اممية فهذا يعنى ان منطلقها طبقى . ثم لماذا نعود الى النصوص المكتوبة لنعتبرها اجوبة وحيدة لمختلف الاسئلة . لماذا نتجاوز الحياة المعاشة الواقع الحقيقى كجواب حاسم. من انت ؟ ــ أنا عربى. من انت : انا عامل . من انت: انا فلاح .. الخ ألا يعنى ذلك انه لا يمكن فصل القومية عن الاساس الطبقى . ألا يعنى ذلك ايضا ان القومية **كما تفهمها الرجعية فهم نسبي وليست كما تدعى فهما مطلقا واخيرا** ألا يكون تحديد الهوية هو الموقف النضالى، اى الموقف التاريخى الحقيقى. فعندما نحدد هويتنا اتجاه الآخر فان ذلك لا يعنى كما فهم البعض تحديدا مطلقا بل هو تحديد للعدو فى مرحلة تاريخية معينة . انه تعبير عن موقف نضالى اتجاه الآخر مهما اختلفت اشكاله وملامحه وجنسياته . فهو ليس دوما العدو القومى بل العدو الطبقى والعدو الاممى ايضا. ان «النضالية» ليست بنية خارج التاريخ بل من صميم التاريخ بل هى التاريخ ذاته ، هى تحقيق للتاريخ على صعيد الحياة وعلى صعيد الوعى .

3 ــ تقنوقراطيو التخلف والثقافة : ان الجانب الذى يبهرنا فى الغرب هو التقنية ، ولذلك فان الغرب الدخيل يتحول الى اعظم هبة سماوية عندما يتعلق الامر بآلاته وأرقامه وأدمغته الالكترونية وعلمه الوضعى. وبذلك ايضا يصبح العلم الغربى ميزة من ميزات الثقافة الغربية الاستعمارية ، وأنه لا يمكن ان يكون هناك علم الا فى ظل ثقافة الغرب ، ان من يدعى ذلك يجهل بدون شك تاريخ تطور العلم . اذ العلم الحديث ليس الا امتداد او ثورة على العلم القديم ، فالاختراعات العلمية الحديثة بالرغم من التطور الهائل الذى احدثته فى العالم المعاصر لا تفوق اهمية الاختراعات البشرية القديمة كالبوصلة والعجلة وغيرهما . ان هذه الاختراعات تشكل اهمية

قصوى فى تطور التجربة العلمية . ان العلم الحديث حافظ على ما كان حيا فى العلم القديم . ان الغصون الميتة هى التى قطعت ، انه امتداد لعلوم الصين ومصر واليونان والعرب ، بل هو امتداد لتاريخ البشرى . وان من يشير بأصابع الفخر الى تقنية الغرب باعتبارها نتاجا بورجوازيا هائلا، اى تقنوقراطيو التخلف يتجاهلون بان التقنية لم تكن يوما اداة لتطوير شعوب العالم الثالث ، بل أداة سياسية لاستغلاله ، وتجذير هيمنة العالم الرأسمالى ، كما ان التقنية لم تكن عاملا حاسما فى تغيير العقلية التقليدية اذ لا ترى فيه هذه العقلة الا وسيلة سهلة للاثراء ووسيلة لحياة اكثر رفاهية. ولذلك تضحى بالجماهير من اجل التقنية. ان النظرة التقنوقراطية تنظر للطبيعة فى استقلال عن المجتمع . عن الانسان وهى تخلط بالاضافة الى ذلك بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية . وأخيرا فان العلم فى نظومها يتجاوز الصراع المجتمعى ، يتجاوز الثقافة . اننا نعنى بالثقافة هنا مجموع الانتاج المادى والروحى فى الفن والعلم ، فى المعرفة والعمل ، انها طريقة التفكير والسلوك ، انها موقف ، انها حصيلة شعب فى نضاله المستمر من أجل تحرره من الطبيعة واخضاعها من جهة ، و نضاله من اجل تحطيم كل أشكال الاستغلال السياسية والاجتماعية والقضاء على استغلال الانسان للانسان التى ينشأ من خلال تطور المجتمع البشرى وطريقة انتاجه. ان الثقافة بهذا المعنى تعبير ونتيجة علاقة الانسان بالمجتمع من جهة وبالطبيعة من جهة اخرى ، انها توجد داخل كل شعب ، لاتنفصل عن الحياة ، وأينما كانت هناك حياة ، فلا بد ان تكون هناك ثقافة .

ان العلم بهذا التحديد لا ينفصل عن الثقافة ، عن المجتمع ، عن الصراع الطبقى. وان خطأ تقنوقراطيو الغرب ووهمهم الابدى يكمن فى عدم ادراك هذه العلاقة وفى محاولتهم التعسفية الواعية لنفيها .

هذه الموضوعات الاولية ليست الا بداية نقاش هدفه مشاركة مثقفينا فى توضيح الغموض ورفع كل الالتباسات المتعلقة بثقافتنا ، انه مجرد اسهام متواضع فى مشروع كبير .

سليم رضوان